التعبير والتفكير في سياق حياتيّ

وائل الفقيات

في ظل المشكلات المتراكمة التي يواجهها الإنسان على سطح هذا الكوكب الصغير المحدود الموارد، بات على الإنسان أن يهيئ لمواجهة هذه التحديات من خلال إنسان يرى حياته ودوره فيها من منظور تأملي نقدي، ويمكنه التعبير عنه بلغة مفاهيمية. ويعتبر هذا النوع من التفكير المفتاح لحل الكثير من المشاكل اليومية التي نواجهها كمعلمين، فإذا لم نستخدم التفكير النقدي نصبح جزءاً من المشكلة. وفي ظل هذه الاهتمامات بالتفكير النقدي الفاعل انصب اهتمام المعلمين في منتدى معلمي دورا وقراها على تناول هذا النوع من التفكير الإنساني للقيام بمشروع أطلق عليه «مشروع تحسين مهارات التفكير والتعبير عند الطلبة». يهيئ هذا المشروع للمتعلم فرصة الانطلاق من معارفه وخبراته إلى معارف وخبرات جديدة، تقوم على الممارسة التربوية التي تشارك فيها جميع الأطراف في صياغة مناخ تربوي يقدّر الفكر، وينأى بنفسه شيئاً فشيئاً عن التعليم التقليدي الذي يعتمد على الحفظ والتلقين والاستظهار.

أنجز هذا المشروع ضمن برامج منتدى معلمي دورا، وقد شارك في تنفيذه كل من: محمد سليمان، وشاهر بدوي، ووائل افقيات، ومحمد شاهين، وخولة الدرابيع.

الفكرة

بدأت فكرة المشروع مع بداية العطلة الصيفية عندما كنا نجلس في المنتدى، قال الأستاذ أبو يوسف: قبل العطلة حدث معي أمر مثير للدهشة، بينما كنت أوزع أوراق أسئلة امتحان الرياضيات على طلاب الصف الخامس، أخذ طالب الورقة مني ونظر فيها بغرابة، وقال: أستاذ: هذه الورقة بحاجة إلى التفكير، وأنا لا أفكر. سألته: لماذا لا تفكر؟ أجاب وهو يضحك: لأنني لا أعرف أفكر. فوقف الجميع في المنتدى وقالوا: هذا الموضوع سيكون مشروعنا القادم.

المقدمة

كتب الطالب محمد «اكسبني هذا المشروع اكتشاف جزء جديد من شخصيتي، ونمت لدي روح الجرأة والرغبة والاستعداد والقدرة على التعامل مع المواقف، وفتح الحوار، والتكامل مع دور المعلم وسهولة التعامل مع المسؤولين».

«إن التفكير –مثل الجذمور– إذا نما ينمو في كل الاتجاهات، ويكبر بتفرعاته، وبالتالي فتفكير الطفل ليس شريط تسجيل ولا شجرة تنمو

في اتجاه واحد، بل هو متنوع ومتفرع ومتطور».

ولذلك قررنا أن نعمل على استكشاف قدرات التفكير الإبداعي والناقد، والعمل على تطويرها، للوصول إلى خلق معنى للخيال، وبناء الإدراك لتعميق نمو الذاكرة، وفسح المجال للمعرفة والمبادرة وصولاً إلى معقولية التأمل، ورسم معنى النقد من خلال التطبيق، والتحليل، والتقييم، وفتح روح المعنى الأصلي.

ومن الرؤيا السابقة انبنى المشروع ليحقق:

- تمكين الأطفال من الأدوات التي تنمي قدرتهم النظرية والتطبيقية وتجعلهم أكثر فعالية.
- بناء مهارة الإنتاج والإبداع والتقييم ورح الحوار والتحليل.
- امتلاك فن القدرة على تشغيل الخيال، وتنمية الحلول والأفكار.
- تدريب العقول على النقد والتساؤل عن كل شيء وتفحصه بعيداً عن التسليم.
- تشكيل مفهوم روح المعنى من خلال الحوار الداخلي المستمر مع الذات ومع الآخر.
- تمكين الأطفال من الوصول إلى بناء صورة ذات معنى للعالم من حولهم وبلغتهم.

تمحور المشروع حول خمسة مجالات لتشكل لوحة متكاملة وذات أهداف مفهومة للوصول إلى تكامل العمل من خلال: محور الرياضيات، محور الفن، محور التعبير الحر، محور الرياضة، محور التكنولوجيا. إن هذه المحاور في تداخلها وتكاملها تعكس رؤية المشروع في تكامل المعارف وتداخلها أولاً، وتدلل على ربط عمل الذهن بعمل الجسد، وربط المجرد بالمحسوس، وربط الثقافي بالتكنولوجي، وربط المعرفة والتعبير في الحياة.

سيركز العرض على محور التعبير الحر، وبخاصة أنه شبه مفقود في المدارس، ويعتبر التعامل معه شيئاً يخالف قواعد التدريس كما يقول أحد المعلمين: «إن أعطاء الطالب مجال التعبير الحر ولو كان واحداً في المائة، هو بمثابة تمرد على المعلم والحصة والمدرسة لأنه جاء من منزله ليسمع لا ليتكلم، لأن الكلام من اختصاص المعلم، ولأن الطالب متعلم وليس مشاركاً».

كان اللقاء الأول صعباً، لأن المشاركين غير متعارفين، وجاؤوا من قرى كثيرة، وترتسم على وجوههم تساؤلات كثيرة: هل ما سنعايشه هو نفسه ما يجري في المدرسة: جرس، حصص، نظام، كتاب. ولتغير هذا الجو، كانت لعبة التعارف بكرة لفتح آفاق المعرفة بين المشاركين. يقول الطالب صلاح: «إن نظرتي في البداية أن التعارف سيكون ما أسمك وما معدلك كما تعودنا في المدرسة، ولكن الأمر كان هنا مختلفاً، فشعرت بارتياح بأن هناك تغيراً».

بدأت الملامح الشخصية والحركات تدل على تحول كل مشارك إلى مبادر أكثر معرفة، لأن المشارك نظر وأدرك أنه أصبح في جماعة ستنمي وعيه وتعزز دوره نحو التعبير.

وهنا كان لا بد من استكشاف قدرات التعبير، وبخاصة أنها تحتاج إلى آفاق من الخيال والمبادرة، ولا يتم ذلك إلا إذا توفرت لغة مناسبة للحوار بعيداً عن الصمت، ولتحقيق ذلك استخدمت أسلوب الخيط، وأثناء لف الخيط يعبّر كل مشارك عن نفسه، فكانت المفاجأة أن إحدى المشاركات بدأت بالبكاء، فكانت لحظة التغير، وبعد دقيقة تكلمت وقالت: لا تلوموني إنني بكيت لأنني لم أتعلم كيف أعبر عن نفسي، لأنني تعودت على كلمات اسكتي! لا تفهمين! ليس لديك قدرة! ولاحظت أن أكثر من ذلك أن الدموع كانت في أعين الكثير منهم، وهكذا أتضح أن هناك نقصاً في ثقة المشارك بنفسه، ما كان له أثر كبير على نفسي، لأني لأول مره أكون فيها مع طلاب خارج أسوار المدرسة، وأسمع لغة إنسان مشارك لي في المعرفة والكتاب، وأرى أن لكل منهما قصة.

وجدت من صمت المشاركين وتعبير البكاء أنهم يمتلكون مفاهيم

ومصطلحات وآراء وأفكار، وهكذا كان لا بد من الدخول إلى فن حل المشكلات، وبخاصة أنني وجدت أن لديهم القدرة على فهم المشكلة، ولا ينقصهم إلا طريقة الربط ما بين الأحداث ودراسة الأسباب. تقول إحدى المشاركات: «إن المدرسة لا تعلمنا حل المشكلة، بل تجعلنا نحن المشكلة، ما ولد لدينا انطباعاً بأنه ليس لنا القدرة على حل أي مشكلة؛ سواء أكانت لنا أم لغيرنا، وانطبعت كلمة «لا اعرف» لدى معظم الطلاب». وهكذا طرحنا أكثر من مشكلة على المشاركين، فتبلورت أفكار المشاركين كما يلي: إن جزءاً منهم كان يطرح الحلول على شكل نكتة، وآخر أظهر عدم الاهتمام، وجزء منهم أكمل الحل بطريقة رائعة. تقول ولاء: «إن هذه المرة الأولى أكون فيها في مشكلة، ومطلوب مني حلها، طبعاً واجهت صعوبة لأنها تحتاج إلى التفكير والتأمل، وبخاصة أننا كنا نعتمد على حل المشاكل من خلال المديرة، أو المرشدة، أو الأهل».

من بكاء الطفلة وفن حل المشكلة، انتقلنا إلى بناء الثقة بالنفس بهدف الوصول بهم إلى الحد المطلوب من التعبير المتكامل، على أساس قواعد فاعلة بعيداً، عن الخوف والتردد، أي بناء طفل قوي لديه القدرة الذاتية للتحدث باطمئنان، واكتشاف المواقف، فعرضنا لهم خمس قصص لتعزز الثقة.

ولا يمكن تجاهل تأثير ربط المشاركين بسرد القصة، لما لها من تأثير على بناء لغة التعبير وتنمية التفكير، فهي الأداء المشوقة لتعلم الأطفال لغة النقد، وتعطي قيمة لحياتهم. لقد كانت هذه التجربة ناجحة، لأن المشاركين أبدعوا في سرد القصص، وكان جزء منه من الخيال، وهكذا بدأت لغة جديدة تدخل في مفكرتهم، اختلفت عن لغة الكتاب والشارع. (عبرت آية عن ذلك بقولها: كنت أسمع القصص الكثيرة من جدتي، وأقول كيف تستطيع سرد كل هذه القصص، وكنت دائماً أسألها: هل قرأت في المدرسة؟ تقول لي: لا. وبعد مهارة سرد القصص، تكونت لدي الفكرة كيف أسرد قصة من خيالي).

وصلنا بهم إلى أعلى درجة من التعبير والثقة بالنفس من خلال نزع الخوف من المسؤول إلى محاورته، وتطوير أسئلة حقيقة وصياغتها، فكانت أسئلة الطلاب في سياق هذا المشروع أسئلة تبحث عن إجابات، فتمت زيارة رئيس البلدية على أساس الحوار المفتوح، وبدأ الطلاب بتوجه أسئلة مخطط لها في عقولهم تتناول الحياة اليومية للمحافظة، وكانت المفاجأة الكبيرة أنهم أداروا هذه المقابلة بنجاح. يقول رئيس البلدية: «إنني لم أصدق أن هؤلاء هم طلاب من الصف السادس، بل إن هؤلاء لديهم قدرة رائعة على طرح الأسئلة وانتظار الجواب».

ولتعزيز هذه الكفاية وتطويرها، تم العمل على إتاحة الفرصة لهم للتعبير الحر ليس مع أنفسهم وأمام المعلم، أو في القاعة، ومع رئيس البلدية، بل أكثر من ذلك، وهو عبر راديو لمسات الشرق. فكانت أروع ما في هذا المشروع هو فتح آفاق الخيال أمامهم عبر الراديو، وما أن دخلنا إلى مقر الإذاعة حتى بدأ الطلاب كل منهم يتصل بأهله وزملائه، افتحوا راديو لمسات الشرق ستسمعون صوتي. تقول الطالبة رؤى: «عندما دخلت إلى مقر الإذاعة دب الرعب في قلبي، كيف سأعبر عمّا أريد، ولكن تذكرت فعاليات المشروع، فصممت على الحديث، وعندما وقفت أمام الميكرفون، شعرت بإحساس قوي بأنني قائد».

تأثير هذا المشروع

- إن أهم ما يميز هذا المشروع أنه أتاح المجال لكل مشارك ليبدي موهبته وقدرته بشكل منفرد، وفي سياق عمل جماعي تعاوني، فابرز كل منهما قوته.
- أظهر هذا المشروع حجم التحولات في دور المعلم والطالب، فشعر الطالب أن له دوراً في التخطيط والتنفيذ، وبيده سلطه كاملة على ما يقوم به، ولهذا السبب ثابروا وعملوا على إنجاح هذه المهارات، وأكثر من ذلك أنهم اقنعوا أنفسهم بخوض هذه التجربة والتخلص من القلق والخوف والتردد. يقول الطالب مؤمن: «عندما دخلت إلى هذا المشروع كان الخوف والتردد هو العنوان عندي، ولكن زال هذا الأمر، وأصبح في الماضي، بل شجعني على تغير أسلوبي في المدرسة».
- ساهم هذا المشروع في تحفيز دافعية المشاركين وتعزيز الرغبة لديهم في الاستمرار، وظهر ذلك من طلب المشاركين كل يوم بزيادة عدد المشاركين.
- أتاح الفرصة لاستكشاف الذات والتأمل في الممارسات التعليمية ليرسم علاقة جديدة ما بين المعلم والطالب على أساس أن الطالب مشارك ومفكر في العمل، وليس مجرد مستمع ومتردد ومتلقي معلومات، وهكذا جرى التحول من تابع للكتاب والمدرسة إلى منتج وصاحب قرار.
- أثار هذا المشروع التميز والإبداع لديهم، وطور لديهم المرونة الذهنية، بأن التعليم لا يقتصر على ما يجري داخل أسوار المدرسة، بل يرتبط بالمجتمع ويمتد إليه.
- الشعور بوجود علاقة تفاعلية متكاملة بين المدرب والمشارك، وهذا أعطى دافعاً للخوض أكثر في عالم التشارك.

الملاحظ أن مدارك المشارك ومعارفه موجودة داخله، وهناك عجز واضح في تنوير ذلك، ولكن عندما تنفتح لغة حوار مناسبة، بعيداً عن الصمت والتصنع، من السهل اكتشاف أن هناك إنساناً يحتاج إلى التفكير وقوة المبادرة.

تولدت لغة مشتركة بين فكر المعلم والتأمل لديه، وبين المشارك، كيف يفكر، ويبدع. ولا يتم ذلك إلا بعد أن يحصل الفرد على المعرفة بطريق التفكير لا الحشو للمعلومات والتسليم بها. وتصبح أكثر معنى عندما تحدث برغبة وقوة ذاتية.

تأملات الطلبة

يقول الطالب عبد الرحمن: «هذه المرة الأولى منذ الصف الأول وحتى الصف السادس التي يسمح لي بأن أفكر بنفسي دون مساعدة، ومن خلال هذا المشروع شعرت أن لي أهمية، وليس أنني مجرد

طالب صغير يحتاج إلى معلومة سهلة وجاهزة ودون تفكير».

تقول الطالبة أمل: «إن علاقتي مع المدرسة كانت ضعيفة جداً، ولكن بعد هذه التجربة شعرت بأنه من السهل التعامل مع الهيئة التدريسية، فقررت في نفسي أنني عندما أعود إلى المدرسة سأغير من أسلوبي».

كتب الطالبة ياسمين: «لقد شعرت بتغير وشعور مشوق وحب الاستمرار في هذا المشروع، كما أنني لم أشعر بالملل، نعم في البداية واجهت صعوبة التأقلم مع المشاركين، لأنهم ليسوا من مدرستي، ولكن بعد فتره اختفت من عندي العزلة، وزادت الجرأة والقدرة على التعامل مع المواقف، وعلى توجيه السؤال في الوقت المناسب والإصغاء للإجابة».

عبر الطالب فراس: «إن هذا المشروع جعلني أكتشف شخصيتي، وبخاصة أنني كنت دائماً أشعر أن لا شخصية لي، كما قال لي أحد المعلمين، ولم أصدق نفسي أنني سأسأل رئيس البلدية، وأتكلم في الإذاعة، بل وأكثر من ذلك عندما نسجت قصة خالية وسردتها أمام الزملاء».

كتبت الطالبة نجوى: «إن عملية التلقين هي عملية صعبة وغير مريحة، ولكن تجربتي في هذا المشروع جعلتني أشعر بأنه يعطي الشخص تصوراً للحياة، ويجذبه ويشوقه إلى زيادة المعرفة والبحث والاستماع، ويجعله يحب المادة، ويقبل المعرفة، ويطور من دراسته، ويتصور أحداثاً أخرى للحياة، ما ينمي عنده روح الخيال والإبداع، ويطور تفكيره والرغبة في معرفة المزيد وحب الاستماع ويقوي الذاكرة.

علق أحد أولياء الأمور في ختام المشروع: «إن حفيدته كانت قبل هذا المشروع منعزلة عن باقي أخواتها ولا تشارك في أعمال المنزل، وأنا اليوم جئت لأعرف كيف تغيرت حفيدتي بهذه الطريقة، والأمر واضح كيف تحول سلوكها من خجولة اتّكالية إلى جريئة ونشطة، وأصبحت تمتلك القدرة على التعبير، فأنا أشكركم جداً وأتمنى أن تستمروا».

اتصل احد المعلمين قال: «ماذا فعلتم لأحمد؟ وكيف تحول من طالب صامت إلى طالب كثير الأسئلة؟».

علق نائب مدير التربية بعد أن حضر الحفل الختامي للمشروع واستمع إلى كلمات المشاركين: «إن هذا المشروع من أروع المشاريع التي لعبت دوراً في صقل شخصية المشاركين، وإظهار مهاراتهم في التفكير والإبداع، ونتمنى أن يكون هناك مشروع تنمية مهارات رقم 2».

وائل الفقيات
مدرسة بنات البرج الثانوية – ذكور الصرة الثانوية